ظلال العلمانية على الظاهرة الاجتماعية في فكر عبد الوهاب المسيري

Shadows of secularism on the social phenomenon in the thought of Abdul Wahab Al-Mesiri

عبد الحليم بن حجبة [1*]

[1] جامعة حسيبة بن بوعلي. (الشلف) ، a.benhadjba@univ-chlef.dz

تاريخ الاستلام: 2023/09./12 تاريخ القبول: 2024/02/.12 تاريخ النشر: 2024/06/10

ملخص:

يدور موضوع الدراسة في إطار الدراسات النقدية الرافضة للاتجاه العلماني المطلق برؤيته المعرفية المحدودة ومناهجه الاختزالية، مما يستدعي النظر فيه وإعادة التفكير فما بعده، بل والكف عن الإعجاب المفرط بهذا المشروع الذي أبان عن فشله.

نهدف من هذا البحث إلى تقديم قراءة تحليلية لمعالم العلمانية وانعكاساتها المرَضية على المجتمع الغربي (الفرد، المرأة، الأسرة) خصوصا، والمجتمعات الواقعة في فلكها عموما، من خلال نقدية عبد الوهاب المسيري.

كلمات مفتاحية: العلمانية،المجتمع الغربي، الأفراد، المرأة، الأسرة.

Abstract:

The subject of the study revolves within the framework of critical studies that reject the absolute secular trend with its limited epistemological vision and reductionist approaches, which calls for consideration and rethinking. Rather, stop your excessive admiration for this project, which proved to be a failure.

From this research, we aim to provide an analytical reading of the features of secularism and its satisfactory repercussions on Western society (individual, woman, family) in particular, and the societies in its orbit in general, through the critique of Abdel Wahhab El-Messiri.

Keywords: Secularism; Western society; individuals; women; family.

* المؤلف المرسل: عبد الحليم بن حجبة

ـ مقدمة:

نزع الغرب إلى العلمانية والأمل يحده في تحقيق قيم العقلانية والفر دانية والحرية وتجاوز كل تسلط ديني، خصوصا بعد تجربته السيئة مع الكنيسة ووصاياها المتشددة، إلا أن هناك من توجس من هذا المشروع المقبل مادام أنه قائما على فعل القطيعة والتنكر الصريح للموروث الإنساني ومنظوماته التقليدية، ما جعل حالة الإيمان النسبي مستمرة داخل وجدان الإنسان الغربي حتى ستينات القرن العشرين.

لكن مع نجاح النموذج العلماني في تمرير إغراءاته المادية وتغول مؤسساته شيئا فشيئا، تراجع الإيمان الوجداني للأفراد وتقلص أمام المطلق العلماني الزاحف لتسقط الحياة الوجدانية الخاصة بهم في شرك العلمانية المطلق، الخالي تماما من الحس الخلقي والخصوصية الذاتية، حيث يختفي الإنسان الإنساني ويتحول إلى ما دونه .

هنا فقط بدأت تظهر أثار العلمانية خصوصا على المستوى الإنساني والأخلاقي، وبدأ المجتمع الغربي يشعر بخيبته الكبيرة مع هذا التوجه، وأن الأمور ليست بذلك التفاؤل الساذج الذي نادت به المواقف المتحمسة لهذا المشروع ـ فعوض أن يؤدي هذا المدرك المحايد إلى تحرير الإنسان أدى إلى استعباده وتشيئه، وبات يطرح من الأزمات الإنسانية ما لا يمكن السكوت عنه، على هذا الأساس فالحديث عن العلمانية من جهة أزماتها المتكررة هو حديث عن قصور منهجها ورؤيتها المعرفية من زاوية، ودعوة إلى مراجعة انعكاساتها المرضية على المجتمع الغربي، ودوائر المجتمعات الأخرى الواقعة في فلكها من زاوية أخرى، وعليه كيف انعكست العلمانية على المجتمع الغربي، خصوصا على مستواه الأخلاقي والإنساني؟.

1. متتالية العلمانية:

يحلل المفكر المصري عبد الوهاب المسيري الإشكالات المتعلقة بالإنسان الغربي عموما والظاهرة الاجتماعية خصوصا، في إطار رصده لمتتالية العلمانية، لا باعتبارها مجرد فكرة تاريخية تأسست على مقولة فصل الدين عن الدولة، بل باعتبارها متتالية آخذة في التحقق، وعلى هذا الأساس يميز الرجل بين نوعين من العلمانية :

ـ **أولا. علمانية جزئية:** والتي تمثل نظرة محدودة للواقع، تحصر فيها عمليات فصل الدين عن مؤسسات الدولة في المجال السياسي والاقتصادي، يعرفها المسيري بقوله: هي "رؤية جزئية للواقع تنطبق على السياسة وربما الاقتصاد، ويُعبر عنها كثيرا بفصل الكنيسة عن الدولة، والكنيسة هنا تعني المؤسسات الكهنوتية عموما، أما الدولة فهي تعني مؤسستها المختلفة" (المسيري، 2002،ص 471)، من الواضح هنا كيف ارتبطت العلمانية الجزئية بالمراحل الأولى لتطور عملية العلمانية الغربية، حيث كان من المتعذر تطبيق صورة الفصل الشامل مرة واحدة، فالدولة لم تكن قوية بما يكفى من حيث امتلكها للآليات والمؤسسات التي تمكّنها من محاصرة المواطن، وعلمنة جميع قطاعات الحياة لهذا يقول المسيري: "تلزم الصمت بشأن المرجعية الأخلاقية والأبعاد الكلية والنهائية للمجتمع ولسلوك الفرد في حياته الخاصة وفي كثير من جوانب حياته العامة" (المسيري، 2002، ص 471).

ـ **ثانيا ـ علمانية شاملة:** وتمثل لحظة السيولة المطلقة، حيث تطفوا اللامركزية وتظهر علامات التفكك والتشيؤ في أبعد حدودها، فبعد تغوُّل الدولة على حد تعبير المسيري وتطور مؤسساتها الأمنية والإعلامية والتربوية المختلفة التي مَكّنتها من تصعيد معدل العلمنة، تم تجاوز السياسة والاقتصاد وعُمِمَ النموذج العلماني بصورة كاسحة شملت كل نواحي الحياة العامة والخاصة للأفراد، حيث لم يعد بالإمكان الحديث عن فصل هذا عن ذاك، مما يعني تقويض مرحلة الصلابة والتحول إلى مرحلة السيولة المطلقة، كيف ذلك؟

يعتقد المسيري أن "حياة الإنسان حتى منتصف الستينيات كانت تتسم بقدر من الثنائية بل الازدواجية، فحياته الشخصية في جانبها الكوني: الميلاد، الحياة، الزواج، الموت، كانت تحكمها منظومة من القيم المسيحية أو منظومة قيم شبه علمانية نابعة من المنظومات الأخلاقية المسيحية، هذا على عكس الحياة العامة التي كانت خاضعة تماما لآليات العرض والطلب والحتميات الاقتصادية والسياسية، وهي جميعها منفصلة عن القيمة" (المسيري،2006، ص254).

هذا يعني أن ما حدث في تاريخ الفكر الغربي في إطار نهجه الحداثي العلماني المستخف بالمقدسات والقيم الأخلاقية، هو أن بعض مجالات الحياة العامة تمت علمنتها لوقت معين، في حين بقيت الحياة الخاصة للأفراد حتى عهد قريب محكومة بمنظومة قيم دينية، أو قيم شبه علمانية تستند إلى مطلقات إنسانية ما، حيث كان الإنسان الغربي لا يزال يؤمن بعد بفكرة وجود مركز لهذا العالم وهو مطلق ما، فكان يستطيع أن يتحكم في رغباته ويوجهها بما يرضي هذا المطلق، فمقولة القيم الدينية، الإنسانية والأخلاقية كانت موجودة بقوة في ضمائر الناس ومقبولة تماما .

"لهذا كان من الممكن أن نجد أستاذا للفلسفة يدافع عن المادية والإباحية في الحياة العامة، ولكنه كان يضبط حياته الخاصة بمعايير مختلفة غير منفصلة عن القيمة، فلا يقبل أن تعيش ابنته مع صديق لها دون زواج وكان يقدس الحياة العائلية، وكان سلوكه الجنسي محافظا إلى حد كبير"(المسيري،2006، ص254)، ما يفسر حالة التماسك النسبي التي اتسم بها إنسان ستينيات القرن العشرين، فنموذج العلمانية الغربي إلى هذا الوقت لم يحكم قبضته المطلقة على الحياة الخاصة بالأفراد، وبقي لهم هامش من الحرية ليحلموا ويكرهوا ويتزوجوا في إطار مرجعية دينية أو مرجعية إنسانية ما، يقول المسيري: "لا لأن الدولة وكذلك قطاع اللذة قد أحجمت عن التدخل، وإنما لأن المسيحية والمطلقات الهيومانية استمرت في وجدان الأفراد، ولم يكن بوسع

الدولة العلمانية أو وسائل الإعلام، وقطاع اللذة التغلغل في هذا المجال" (المسيري،2002، ص38).

لكن الأمور تغيرت وطاقة التصدي استنفذت بعد تراجع الإيمان الوجداني للأفراد، وتقلصه أمام المطلق العلماني الزاحف إذ "تتابعت حلقات المتتالية بخطى أخذت تتزايد في السرعة، فقد ازدادت الدولة العلمانية قوة وتغولت وأصبحت الدولة التنين التي تنبأ بها هوبز، وأحكمت مؤسستها التربوية قبضتها عليه من الداخل" (المسيري،2002، ص38)، وينبغي أن ننتبه جيدا إلى عبارة الداخل التي تعني سقوط الحياة الوجدانية الخاصة للأفراد، في شرك العلمانية المطلق الخالي تماما من الحس الخلقي والخصوصية الذاتية، حيث يختفي الإنسان الإنساني ويتحول إلى الكائن السبمان ما دون الإنسان المقبل على الدنيا والشغوف بها، "الهدف من الوجود بالنسبة له تحقيق النفع الشخصي، وتعظيم المتعة وزيادة اللذة، فهو إما إنسان اقتصادي، أو إنسان جسماني، أو خليط منهما، وهو في جميع الأحوال إنسان طبيعي/مادي، لا علاقة له بالخير أو بالشر أو بأي قيم تقع خارج نطاق الحواس الخمسة"(المسيري،2006، ص255).

2. ظلال العلمانية على المجتمع الغربي (الفرد، المرأة، الأسرة) و أثار ذلك:

في إطار مقاربة المسيري لطبيعة المجتمع الغربي المتشبع بالرؤية العلمانية، يسجل مجموعة من التحولات الأساسية الحاصلة داخله ومنها :

2.أ ـ فعلى مستوى الحياة العامة للأفراد: حدث تحول قيمي واسع في حياتهم تجلى في غياب قيم المروءة والحياء والغيرة والتضحية وروح المسؤولية، وبروز قيم النرجسية والعبث والمتعة والمصلحة، حيث صار "أعضاء المجتمع يبدون استعدادهم لأن يتحولوا إلى مادة وظيفية، وأن يوظفوا أجسادهم وحياتهم بأسرها لتحقيق طموحاتهم" (المسيري،2006، ص58)، بأي ثمن كان فالرغبة في الإشباع الحيوي والطموح في تحقيق

الوجود المادي، غدت مطالب ضرورية لا تحتمل التأجيل، ولا تقبل التحديد بموجهات دينية أو أخلاقية، وقيم الإلزام هذه، أصبحت خطابات قديمة لا ينادي بها إلا متخلف رجعي أو محافظ ضيق الأفق، فهي مجرد شعارات لا تشبع بطنا فارغا ولا تكسو جسما عاريا.

والنتيجة هي تراجع الحس الديني والأخلاقي في الضمير الذاتي للأفراد، وموته في الضمير الجمعي للمجتمع، إذ أصبحت بعض الوظائف التي كانت رخيصة ومشينة في الكثير من المجتمعات الإنسانية، مقبولة ومطلوبة "فوظائف مثل عارضة الأزياء أو النجمة السينمائية، أو المضيفة مثلا، والتي كانت مرفوضة بسبب تعارضها مع قيم دينية أو أخلاقية ما، فعارضة الأزياء تقوم بعرض مفاتنها وما ترتديه من أزياء، لتزيد في معدل إقبال على السلعة وشرائها، والحياة الخاصة للنجمة السينمائية ملك للجميع، كما أنها قد تؤدي دورا جنسيا يستبيح جسدها للجمهور، والمضيفة التي تسافر كثيرا الأمر الذي يهدد حياتها الأسرية كزوجة وكأم، أصبحت وظائف مرغوباً فيها، بل حلماً لكل فتيات الطبقة المتوسطة في الشرق، وأمرا عاديا تماما في الغرب"(المسيري، 2006، ص258)، فالمقياس هنا كم تحقق من ربح؟ أو ما تحققه من شهرة وثراء حتى ولو كان ذلك على حساب كرامة الإنسان وإنسانيته، فتمركز الإنسان حول ذاته المادية رفع من حسه المادي النفعي، وأصبحت معايير القبول عنده مدى النجاح في تحقيق أهدافه، مادام أنه كائن مادي/طبيعي أولا، يضرب بجذوره في الطبيعة لا يقدر إلا على التمركز حول مصلحته المادية وبقائه الحسي، ومن هنا فعندما تتحول المرأة إلى مجرد جسد محايد، لا علاقة له بالخير أو الشر تقاس بمدى كفاءتها الجمالية أو الجنسية، فلا ينبغي أن نستغرب، وعندما يصبح "البغاء مجرد نشاط اقتصادي، وتسمى البغي**Sex Worker**، فهي إنسان يقوم بكسب لقمة العيش لقاء جهد عضلي يبذله"(المسيري،2006، ص258)، لا يجب أن نستهجن الأمر أو نتكلم عن مسألة مقدس أو مدنس، بل على العكس من ذلك ينبغي الاعتراف بحقوق هذه الأقليات .

من المؤكد أن هذا الوضع يصبح حتمي ومنتظر، إذ بعد طغيان النزعة العلمانية وفقدان البوصلة الدينية ماذا نتوقع حياة أفضل مملوءة بالمحتوى تمنح الوجود الإنساني المعنى؟ أم ننتظر حياة عدمية اختزالية يطبعها التشظي والشذوذ؟.

يحكي المسيري إحدى قصصه الحزينة عن الحياة اليومية الغربية المنفصلة عن الاعتبارات الدينية والأخلاقية، قصة طالبة كانت تدرس عنده لاحظ بأن دراجاتها بدأت تنخفض بسرعة، ولما سألها عن السبب، أجابته: بأن زوجها يحضر عشيقته معه إلى المنزل وينامان في غرفة نومها، فتضطر هي إلى النوم على الأريكة في الصالة، يقول المسيري: وبدلا من أن تعبر عن أي مشاعر إنسانية فطرية كالغيرة تدعي بموضوعية شديدة أن الأريكة غير مريحة، مما يجعلها لا تستطيع النوم!، ويضيف المسيري قائلا: ولما أخبرتها أنه بإمكانها أن تشتري أريكة مريحة، نظرت إليّ وأدركت أني عرفت ما لا تريد البوح به (المسيري،2006، ص113) .

هي صورة واضحة بدون شك تصور لنا قوة المشهد الذي آلت إليه حضارة الحياد، وتشهد على الانهيار القيمي الحاصل، لدرجة جمود المشاعر وغياب قيم الغيرة والمروءة والإنسانية حتى بين الأزواج، حيث لا وجود لأيّ ضوابط دينية، أخلاقية أو إنسانية نحتكم إليها، ولكن يوجد شذوذ وانحلال، حرية وسعة أفق، حالة من العبث تختل فيها الموازين، فيتحول الشذوذ والمتعة إلى حرية وفردانية، والسكوت عن هذه السلوكيات اللاإنسانية تفهم وسعة أفق، وتنكسر القواعد القائمة في الأسرة والأبوة، فبعدما كان الزواج رابطة روحية تعبر عن حب الإله، لا يعقد إلا بإذن الكنيسة أصبح عقدا مدنيا، وبعدما كان الطلاق أمرا محرما لا ينتهي إلا بموت أحد الزوجين، بات أمرا مباحا بحجة انه استرقاق للمرأة أصلا، وباسم الفردانية والحرية والنسوية ظهرت أصوات متعالية تنادي بانتصاب المرأة كذات مستقلة عن الرجل، وضرورة الاعتراف بالأقليات التي تعتبر نفسها مضطهدة، مثل اللوطيين والساحقين والمثليين، "فلا وجود لجنسين متقابلين كما رسخته الثقافة في

الأذهان، وإنما هناك وجود لجنسية إنسانية واحدة، فيها من الاشتباه قدر يمكّن الفرد من أن يكون له هذا التوجه الجنسي أو ذاك، بصرف النظر عن طبيعة عضوه التناسلي"(طه، 2006، ص125) .

كل هذا والمجتمع الغربي يحتفي بحضارته المتحررة الواعدة، ولا يضع في حسبانه مآلات هذا التوجه اللاإنساني، "إذ نجد تقهقر في الزواج وارتفاعا في الطلاق وانهيارا في المواليد وازديادا في العجائز، وتكاثر الأطفال الطبيعيين وتصاعدا في المراهقات الحوامل واهتزازاً في البيوت وشيوعا للشذوذ"(طه،2006،ص125)، ومع هذا نتكلم عن الفرد الطليعي المتفهم، والفنان الملهم المبدع بلا حدود، والأسرة المنفتحة، والمرأة المتحررة التي أصبحت دليل صحة لا دليل مرض .

2.ب ـ أما من جانب الأسرة: فإن سيادة الرؤية العلمانية داخل الأسرة الغربية، جلب لها فصلا متباينا عن مصفوفة القيم التقليدية المقدسة التي كانت منوطةً بها (من إنجاب للأبناء وتربيتهم، تقديم الرعاية النفسية والتكافل داخل العائلة الممتدة، صيانة إرث العائلة المادي والروحي، تحقيق التماسك العائلي)، مادام بالإمكان القيام بهذه الوظائف بواسطة مؤسسات حديثة، وهذا كله حفاظا على استقلال الأسرة ودعما للتخصص في وظائف المجتمع ـ لكن كل هذا التوجه الجديد المحايد "لم يحقق لها خصوصية بل أدَّى إلى اختراق أكبر لمؤسسة الأسرة التي أصبحت تعتمد على مؤسسات خارجية، وخلق إشكالية ازدواجية العام والخاص في المجتمع وتباين المعايير في كليهما، ووجدت الأسرة نفسها متهمة في النهاية بتكريس النزعة الفردية "(المسيري، 1998ص345)، مما تسبب في ارتفاع نسبة الطلاق وتشتت الأطفال، وزيادة نسبة الأمهات العازبات وحالات الانهيار العصبي، وانتشار الإباحية والدعارة والشذوذ الجنسي، ناهيكَ عن تصاعد معدلات الجريمة والإدمان وانتشار الأمراض العضوية، وتحول المجتمع من مجتمع إنساني تراحمي، إلى مجتمع تعاقد تناحري تنتهي فيه المسؤولية العاطفية والأخلاقية تجاه الأطفال بعد بلوغهم سن السادسة عشر، وتنتهي المسؤولية الاقتصادية بعد ذلك ببضع سنين.

يطلعنا التوجه العلماني الرأسمالي المتشبع بقيم الحداثة (العقلانية، الفردانية، الحرية) كذلك، كيف أصبح الإنسان الغربي عموما والفرد الأمريكي بنسبة أعلى دائم التغير لمكان إقامته إن وجد فرصة أفضل لتحسين دخله وتعظيم ثروته، مما جعل عملية بيع البيوت وشرائها تستمر بشكل دائم.

لكن يقول المسيري:"عندما نتحدث عن بيع البيوت، نتحدث عن عدم الاستقرار وأن الإنسان هناك يعيش في سلعة ويتاجر بها، إلى عوامل أخرى مثل التمركز حول الذات والتوجه نحو اللذة الفردية، كل هذا يجعل من الصعب بناء أسرة"(المسيري،2013، ص197)، لأن الفرد المكتفي بذاته والمنجذب نحو تحقيق لذاته بشكل غير أخلاقي، لا يستطيع أن يتحمل أعباء الأسرة أو لنقل واجباته الإنسانية والاجتماعية، بعدما انغمس في الحياة المادية ومتعها الدنيوية، التي تتطلب الاستهلاك المستمر، وعدم الارتباط والالتزام مما يحد من حرية الفرد ويقيد من حدود راحته الذاتية، وربما هذا ما يفسر ظاهرة العزوف المتزايد عن إنجاب الأولاد، بل والزواج أصلا واستبدالها بعملية التعايش ـ **(cohabitation)**، حيث "يتعايش شخصان معا فترة من الزمن تتراوح طولا أو قصرا حسب الظروف دون أن يتزوجا"(المسيري،1999، ص423)، لِيتفَادَا عبء الأسرة وتكاليف تربية الأولاد، فالتعايش هنا يتيح لأي طرف رجل أو امرأة حتى لا نقول زوج وزوجة الانسحاب وقطع العلاقة في أي لحظة بشكل هادئ ومريح، إذا ما شعر أحدهما بالملل أو تبين له أن هذه العلاقة لم تعد تحقق له لذة أو منفعة.

يحصل هذا كله نتيجة اكتساب المجتمع الغربي لممارسات حديثة، تتنافى وطبيعة السنن الربانية والبنيات الاجتماعية التقليدية الموروثة، فبعدما كانت الأسرة وحدة مقدسة تعبر عن ارتباط روحي وشراكة جوانية تتم بين الزوج والزوجة، يحمل كل شخص فيها للآخر قيم المحبة والاحترام، والتفاهم والأمانة وعدم الخيانة، ويرجئ الإشباع بطريقة إنسانية، يسعد الزوجان بأطفالهما بعد انتظارهم بشغف، وتحاول الأم أن تفهم ابنتها والأب يصادق ابنه، فلا

تحسب المسألة بحساب الفائدة والخسارة والأعباء والتكاليف، تحولت في إطار الرؤية المادية العلمانية إلى علاقة تعاقدية وظيفية، يصبح فيها الرجل والمرأة مجرد رفيقين متعايشين معا، لتحقيق وظائف معينة (متع، منافع علاقات عابرة). يقول المسيري: "فإن كل هذا يعني مزيدا من التمركز حول الذات، ومزيدا من الإحساس بالعزلة، ومزيدا من الانغماس في الآليات اليومية المادية التي تقضي على الدفء والحب والمودة والتراحم" (المسيري،1999، ص423)، فالإنسان لا يمكن له أن يحترم هذه القيم، ويقوم بإرجاء متعه الحسية إلا بوجود مثل عليا وغايات أخلاقية، دينية مقدسة في حياته تمنحه اليقين والاستقرار، يشعر معها بنوع من العزاء والتعويض عن متعه الدنيوية، بغايات روحية أعلى.

لكن في غياب هذه المثل العليا (الدين الشرف، السعادة الأخروية) فإن عملية الإرجاء تصبح صعبة ومستحيلة، وتتحول إلى نرجسية وإشباع فوري، يقول المسيري: "في غياب الأسرة، وغياب المثل الأعلى، والتوجه الشديد نحو اللذة تختفي إمكانية الإرجاء، ولا يمكن أن تقوم المدرسة بإقناع الإنسان بإرجاء إشباع رغباته (الحسية)، فلا يمكن لمؤسسات غير شخصية أن تقوم مقام الأسرة"(المسيري، 2002، ص122)، فمع تزايد معدلات العلمنة الشاملة داخل الأسرة الغربية، تراجع الإيمان الديني لديها، وتبعا لذلك تناقص الاهتمام بالقيم المطلقة، في حين ارتفع معدل التفكير البرجماتي، حيث أصبح الاهتمام موجها نحو تحسين الدخل المادي وتحقيق سبل الرفاهية (توسيع المنزل، تغير السيارة، والهاتف ...الخ) أي إشباع مستويات اللذة الحسية، والتركيز على القيم المادية على حساب القيم الروحية والأخلاقية .

لكن هذا التوجه أحدث تآكُلاً كبيراً داخل الأسرة على عكس ما كان متوقعا، وتراجعت سلطتها الأبوية على الأبناء وما عدت قادرة على التحكم فيهم وتوجيههم، فقد فقدت ثقتها وتوازنها، وبدأنا نلاحظ حالات الانسحاب والأمراض العصبية والطلاق وعدم الرغبة في الإنجاب والزواج أصلا، ونتج عن ذلك ظاهرة جديدة في المشهد الاجتماعي الغربي وهي الأمهات

العازبات، والأمهات المراهقات اللواتي يملن إلى الذهاب إلى مؤسسات الرعاية أكثر من الدخول إلى مؤسسة الزواج المستقرة الثابتة.

في إطار هذه الحياة لنا أن نتصور الاختلال الحاصل داخل بنية المجتمع ونفسيه الأطفال، وهذا كله بسبب الابتعاد عن التعاليم الربانية الحقَّة، والقيم الدينية الأصيلة باسم الحرية والفردانية والعقلانية وغيرها من الشعارات التي جاءت بها العلمانية الغربية، فقد أكدت الأبحاث الاجتماعية التي أجريت على أطفال الأمهات المراهقات "وجود ميل كبير عند هؤلاء الأطفال لخلق المشاكل في المدارس وإظهار العدائية الواضحة وقلة الانضباط أكبر بكثير من الآخرين، وخاصة الذكور منهم"(ولسن، 1990،ص73) ، يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: "كانت الأسرة عبر التاريخ تكتسب تماسكها من خلال الإيمان بالمجتمع الذي يستند بدوره إلى إيمان بعقيدة ما، ومن خلال هذا الإيمان يمكن إرجاء إشباع الرغبات الجنسية، وباسمها توجه الرغبة الجنسية من خلال قنوات اجتماعية، وباسمها أيضا يمكن الاستمرار في تنشئة الأطفال (...) ومع تآكل العقيدة، يصبح الإرجاء صعبا بل مستحيلا، ثم تتفكك الأسرة"(المسيري،2002، ص234) ، هذا فيض من غيض فقط، وإذا أردنا صورة أوضح فلنقارن حالة الأسرة النووية المتشبعة بالرؤية العلمانية والأسرة الممتدة المحافظة.

ـ إن الأسرة النووية الحديثة أصبحت تضم الأب والأم والأولاد وحسب، على خلاف الأسرة الممتدة التي كانت تضم الجد والجدة والأعمام والأخوال أحياناً، ولكن المهم هو أن ندرك أنه "في إطار الأسرة النووية يجابه الإنسان أعباءه اليومية كلها بمفرده دون توجيه أو مساعدة كما أن الأطفال يمثلون عبئا ثقيلا عليه، لأن في العائلة الممتدة يكّون الأطفال مجتمعا هرميا خاصا بهم، يسيرون أمورهم بنفسهم ويتبادلون الخبرات والمعلومات فيما بينهم دون اللجوء إلى الكبار في كل صغيرة وكبيرة"(المسيري، د ت، ص72)، وهذا كله طبعا يخفف العبء (النفسي والتربوي والأخلاقي) على الوليدين، نهيك عن تعاظم البعد التواصلي الاجتماعي وتقوية الروابط العائلية، فالأطفال يجدون أنفسهم داخل شبكة من العلاقات الاجتماعية

والإنسانية التي تغلب عليها قيم التراحم والاحترام والطاعة والتدين والمحافظة والاجتماع، مما يقلل من معدل الفردانية والأنانية والنرجسية والانحراف .

. إن "الأسرة النووية بناء ضيق خانق، فالزوج لا يخرج إلا مع زوجته، وبالتالي لا تخرج هي إلا معه" (المسيري، د ت، ص72)، وهذا يعكس بدون شك محدودية العلاقات الاجتماعية، حيث يجد الفرد صعوبة في التواصل مع الآخرين، في الخروج معهم، مشاركتهم لحظات الحياة حتى ولو كانوا من المقربين أقارب مثلا أو أصدقاء، لأن ساعات الزمن محسوبة والعلاقات تتسم بالوضوح ولا وقت فيها للتراحم والتّوادد والتعاطف، ومجموع القيم التي تتجاوز سطح المادة والمصلحة.

. **داخل الأسرة النووية** لا يمكن للرجل المتزوج إلا أن يصادق رجالا متزوجين ولا يمكن للمرأة المتزوجة إلا أن تصادق نساء متزوجات، يقول المسيري: "وقد تبدو هذه المسألة طبيعية للغاية، ولكن نتائجها الحضارية عميقة للغاية، فهي تعني أن الزوج يحصر اهتماماته في اهتمامات زوجته، وهذا قد يكون مقبولا بالنسبة له لأنه يقضي معظم حياته خارج المنزل يعبر عن إمكانياته، ولكن الأدهى أن الزوجة تحصر اهتماماتها في اهتمامات زوجها، وحيث أنها تقضي كل وقتها في المنزل (خصوصا ربات المنزل اللواتي لا يشتغلن)، فإنها تصبح عبئا على نفسها وزوجها"(المسيري، د ت، ص73) ، طبعا وفي إطار هذه العلاقات الضيقة سيتركز اهتمام الزوجة على زوجها أكثر فأكثر ما يجعله نقطة ملاحظة دائمة بالنسبة لها، وبدلا من أن ينعكس ذلك إيجابا عليهم فتتقوي العلاقة بينهم، تحدث مصادرة لحرية الرجل، لأن الزوجة المسكينة سوف تطلب من زوجها اهتماما متزايد حتى في أدق التفاصيل (أن يتحدث معها، يبدي رأيه في ملابسها، وتسريحة شعرها، ينتبه لما تطبخه، يتذكر عيد ميلادها...الخ) فهي لا تعرف علاقات أخرى لتنفس عن نفسها وتظهر قدراتها واهتماماتها، يقول المسيري: "وهذا على عكس الأسرة الممتدة حيث يمكن للرجل أن ينشئ علاقات مع معارفه من الرجال، كما أن مجتمع الأطفال يفيد في تبادل الخبرات وفي الإنضاج الإنساني" (المسيري، د ت، ص73) .

2.ج ـ صورة المرأة في إطار الرؤية العلمانية: الحديث عن الأسرة في إطار المنظومة العلمانية، يستدعى بالضرورة الوقوف عند المرأة ودراسة بنيتها الاجتماعية، لأنها جوهر الأسرة إن صلحت صلح معها حال الأسرة ومن ثم حال المجتمع من بعدها، من هذا المنطلق إذا فكلما استطعنا تحليل وضع المرأة الغربية في إطار علاقتها بالنموذج المعرفي العلماني اقتربنا من فهم دقيق للظواهر الاجتماعية.

ـ أولا. يري المسيري: أن استخدام كلمة امرأة في الرؤية الغربية العلمانية، يختلف مدلوله في الرؤية التوحيدية الإسلامية: فقد نظر الفلاسفة منذ القدم إلى المرأة نظرة سلبية مختزلين كل مواهبها الإنسانية داخل إطار الجسد، وقد يعود ذلك إلى الصورة التي رسمها أفلاطون ومن بعده أرسطو فقد أهتم الفيلسوفان بالحديث عن صفات الرجال لكنهما لم يهتما بالحديث عن صفات النساء، ترى <جان غريمشو ـ **Jengrimchaw** > في كتابها الفلسفة والتفكير النسوي ـ أن المرأة عند أرسطو تمثل الأدنى وذلك بسبب انطلاقه من مبادئه الميتافيزيقية: أن الكون بكل مظاهره مرتبا ترتيبا هرميا، ما هو أدنى يخضع لما هو أعلى، وأن العقل يميز الإنسان عن غيره من الكائنات، أنه من طبيعة الجزء العاقل من الكون أن يتحكم بالجزء غير العاقل(العزيزي، 2005،ص51).

انطلاقا من هذه المبادئ حددت مرتبة المرأة في الحياة الاجتماعية، فارتبط العقل بالرجال" واعتبروا كائنات أعلى تمثل الجزء العاقل، بينما اعتبرت النساء والعبيد كائنات أدنى لأنهم لا يملكون القدرة على ممارسة قدراتهم العقلية بصورة تامة"(العزيزي، 2005، ص51)، وأثر ذلك في التراث الغربي فيما بعد، فقد همش <ديكارت> المرأة واعتبرها رمزا للجسد عندما أعلن عن ثنائيته التي قسمت تاريخ الوعي الأوربي إلى قسمين: المادة والجسد، فارتبط العقل بالرجل والجسد بالمرأة التي أصبحت رمزا للمتعة والجنس والغواية، وقرر <روسو> "أن أصعب الشؤون البشرية التي تتعلق بالدولة والتاريخ، يجب ألا يعالجها إلا الرجال وحدهم وأن مهمة المرأة الأولى تنحصر في إمتاع الرجل، وامتد الأمر ليشمل <كانط> الذي أصبغ

العقل لديه بالصبغة الذكورية"(سعاد، 258،2008)، بسبب الجبن والكسل اللَّذينِ يمنعان المرأة من استخدام عقلها، وازداد الأمر فداحة مع النظام الرأسمالي "حيث أثر هذا النظام في أمريكا تأثيرا قويا على وضع المرأة، فأصبح جل اهتمامها بأنوثتها ورشاقتها فازداد استهلاك النساء لمستحضرات التجميل ما يزيد عن أربعة بليون دولار"(سعاد، 258،2008).

ـ ثانيا: مفهوم عمل المرأة في سياق النموذج المعرفي العلماني الغربي يختلف عن مفهومه في السياق التوحيدي الإسلامي، فالعمل الذي تتقاضى عنه المرأة أجرا خارج منزلها، هو العمل الاقتصادي الذي له معنى، فالمرأة هنا كائن اقتصادي تنتج وتستهلك، تقاس حركتها كما، وتكتسب احترام زوجها على الرغم من أن الوظيفة التي تؤديها قد لا تكون خلاقة أو ممتعة، أما عملها داخل منزلها (من تربية الأطفال والاعتناء بأسرتها فلا يعد عملا على الإطلاق، لأنه يتم داخل المنزل ولا تتقاضى عنه أجرا ولا يقاس كماً (الشقوري،2009،ص143/142)، ومن المنطقي جدا في إطار الرؤية العلمانية وخطابها المادي، أن يصبح معيار كفاءة المرأة يقاس بمردودها الإنتاجي النفعي، ودرجة احترامها بدءًا من زوجها في المجتمع يكون على حسب الوظيفة التي تشغلها، أما ما تقوم به داخل بيتها تجاه أسرتها من تنظيف للمنزل وتربية للأولاد واعتناء بشؤون أسرتها، واستقبال زوجها عند عودته من العمل، والقيم الإنسانية التي تمنحها لأسرتها من محبة وعطف وعناية فهذا كله لا يعد عملا وليس له قيمة، يقول المسيري: "إن هذه الزوجة التي لم تفعل شيئا من منظور مادي علماني، فعلت الكثير من منظور أكثر تركيبا، ولكنها استبطنت الخطاب المعرفي المادي ولذا فعليها أن تخرج من المنزل فورا حتى تعمل، أي حتى تتقاضي أجرا فتستعيد احترامها لنفسها، قد يفسد الأطفال وقد تنهار الأسرة وتضيع خصوصية الحضارة (فالأم هي التي تعلم الأطفال الحضارة والقيم)، ولكن هذه أمور ثانوية"(الشقوري،2009،ص145)، مادمت القيمة في المحيط العلماني المادي هي المقابل الاقتصادي المحايد والبنوك لا تصرف شيئا اسمه قيم روحية أخلاقية.

. خاتمة:

ختاما يمكن القول: أنه من الضروري الانتباه إلى النتائج السلبية التي جلبتها العلمانية على الإنسان الغربي خصوصا، والإنسان المعولم (الذي شملته دائرة العولمة فأصبح يدور في محيطها وفلكها متجردا من خصوصياته، عادته وتقاليده مسلما لها) عموما، فمقولة العلمانية تحولت إلى مقولة تدميرية، وبدل من أن تحقق للأفراد هامشا من الحرية والإبداع والانفتاح الإيجابي وتجعل منهم شخصيات ثورية كما كان متوقعاً، حولتهم إلى عوالم متكيفة ومهجنة، عطلت فيهم أهم خاصية تميزهم عن الطبيعة والحيوانات وهي إنسانيتهم، أي مقدرتهم على العيش وَفْق إرادتهم ووعيهم واختيارهم الحر.

هذا وإذا كانت علامات العجز والخلل متأتية من الارتكاز على مقومات الرؤية العلمانية واستبعاد مقولة القيم الدينية، الإنسانية والأخلاقية، فإنه من غير المنطقي الاستمرار في تمجيد هذه الرؤية واعتبار ما يصدر عنها من أزمات مجرد آثار جانبية، إذ من الغباء أن نلاحظ كل هذا الكم الهائل من الاضطرابات الحاصلة في الجانب الإنساني والأخلاقي ونعتبر ذلك مجرد أثار جانبية، ومن الإستحمارية على حد تعبير <الدكتور علي شريعتي> أن نوهم الناس بأن الحل والتقدم في علمانية الغرب كما هي عليه جاهزة.

إذا كان الخلل يكمن هنا، فكذلك المخرج يبدأ من هنا أي في استعادة ما هو مفقود فتجاوز مشاكل العصر وأزماتهِ لا يتم بإصدار قرارات سياسية، أو شعارات إعلامية، أو خطط علمية في جو منفصل عن أي توجيه متعالي، بل يتطلب معالجة جادة وحقيقية، تستوعب طاقات الأمم وإمكانياتهم سياسيا وإعلاميا، أفرادا وجماعات، من خلال مرجعية حقيقية، مما يدعو إلى ضرورة ممارسة التجربة الإنسانية باسم الدين في ظِلِّ مسؤولية مشتركة تضمن احترام متبادل للمتدين وغير المتدين.

5- List of references :

1. Al-Messiri, Abdel-Wahhab, Cognitive Studies in Western Modernity, Cairo, Al-Shorouk International Library, 2006.

2. Al-Mesiri, Abdel-Wahhab, Partial Secularism and Comprehensive Secularism, Volume Two, Cairo, Dar Al-Shorouk, 2002.

3. Abdel Rahman, Taha, The spirit of modernity: an introduction to the establishment of Islamic modernity, Casablanca, Morocco, Western Cultural Center, 2006.

4. Al-Messiri, Abdel-Wahhab, The Problematic of bias, a cognitive vision and a call for diligence , Part Two, International Islamic Institute - Virginia, USA, 1997.

Al-Mesiri, Abdel-Wahhab, Secularism, Modernity, and Globalization, Damascus, Dar Al-Fikr. 2013. 5.

6. Al-Mesiri, Abdel-Wahhab, Encyclopedia of Jews, Judaism and Zionism, Volume One, Egypt, Dar Al-Shorouk, 1999.

7. Al-Mesiri, Abdel-Wahhab, Culture and Curriculum, Damascus, Dar Al-Fikr, 2002.

8. Wilson, James, Family Values and the Role of Women, Al-Ma'rifa Magazine, No. 386, Ministry of Culture, Syrian Arab Republic, Syria, 1990, p. 73.

9. Al-Mesiri, Abdul Wahab, The Earthly Paradise, Studies on American Civilization, Studies and Impressions on Modern American Civilization, Arab Unity Forums.

10. Al-Azizi, Khadija, The Philosophical Foundations of Feminist Thought, Lebanon, Bisan Publishing, Distribution and Information, 2005.

11. Souad, Abeer, Al-Mesiri's vision of feminism, Philosophical Papers Magazine, No. 19, Egypt, 2008, p. 258.

12. Al-Shaqouri, Jawad, 2009, on Al-Mesiri's qualitative additions to the Arab-Islamic project, Papers magazine, issue 20, Egypt, pp. 142/143.

6. قائمة المراجع:

.1ـ المسيري، عبد الوهاب،2006، دراسات معرفية في الحداثة الغربية،القاهرة، مكتبة الشروق الدولية.

2 ـ المسيري، عبد الوهاب، 2002 ، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد الثاني، القاهرة، دار الشروق.

3ـ عبد الرحمان، طه،2006، روح الحداثة مدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية،الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي الغربي

4ـ المسيري، عبد الوهاب، 1997، إشكالية التحيز رؤية معرفة ودعوة للاجتهاد، الجزء الثاني، المعهد العالمي الإسلامي ـ فرجينيا الولايات المتحدة الأمريكية.

5ـ المسيري، عبد الوهاب، 2013، العلمانية والحداثة والعولمة، دمشق، دار الفكر.

6ـ المسيري، عبد الوهاب، 1999، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، المجلد الأول، مصر، دار الشروق.

7ـ المسيري، عبد الوهاب، 2002، الثقافة والمنهج، دمشق، دار الفكر.

8ـ ولسن، جيمس،1990، القيم العائلية ودور المرأة، مجلة المعرفة، العدد 386، وزارة الثقافة الجمهورية العربية السورية، سوريا، ص 73.

9 ـ المسيري، عبد لوهاب، (د.ت)، الفردوس الأرضي دراسات عن الحضارة الأمريكية، دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية الحديثة، منتديات الوحدة العربية،

10 ـ العزيزي، خديجة، 2005، الأسس الفلسفية للفكر النسوي، لبنان، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام.

11ـ سعاد، عبير، 2008، رؤية المسيري للنسوية، مجلة أوراق فلسفية، العدد 19،مصر، ص 258.

12 ـ الشقوري، جواد، 2009، في الإضافات المسيرية النوعية للمشروع العربي الإسلامي، مجلة أوراق، العدد20، مصر، ص ص142/143.